ترجمات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الكتب العربية والكنز المغربي
العقيد بيرسيفال كيرك ومولاي إسماعيل (١٦٨٢ – ١٦٨٣)

العياشي الحبوش
أستاذ الأدب الإنجليزي والدراسات الثقافية والإعلامية
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية

الدِّرَاسَةُ

يقوم الدكتور نبيل مطر بالترجمة الثقافية ما بعد الكولونيالية للأصوات العربية الإسلامية من خلال الاستعمال الخطابي للأرشيفات الغربية والعربية واستدراجها من أجل كتابة تاريخية جديدة تتأسس على عودة الهامش وهو يحاول استعادة فاعليته في التمثيل الذاتي والسرد المقاوم للهيمنة. والدراسة التالية من ترجمة العياشي الحبوش، تحت عنوان "الكتب العربية والكنز المغربي: العقيد بيرسيفال كيرك ومولاي إسماعيل، ١٦٨٢-١٦٨٣"وبيانات النشر الأصلي لها:

Nabil Matar, Arabic Books and a Moroccan Treasure: Colonel Percival Kirke and Mulay Ismail, 1682-1683 April 2011 The Seventeenth century 26 (1):119-128.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام الترجمة: ١٥ نوفمبر ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ ديسمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
مكتبة مولاي زيدان؛ الإسكوريال؛ مولاي إسماعيل؛ الكتب العربية؛ المخطوطات

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/KAN.2021.222717

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:
نبيل مطر. "الكتب العربية والكنز المغربي: العقيد بيرسيفال كيرك ومولاي إسماعيل (١٦٨٢ – ١٦٨٣)"، ترجمة: العياشي الحبوش.- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١٧٣ – ١٨٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: el_habbouch@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الترجمة في دَّورية كَان التَّاريْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

حقوق الملكية الفكرية والترجمة والنشر: حقوق الملكية الفكرية محفوظة. حقوق الترجمة العربية محفوظة © للأستاذ العياشي الحبوش. المترجم والدورية غير مسئولان عن الآراء الواردة في النص الأصلي. النقل والاستشهاد وفق الأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها. غير مسموح بإعادة نشر كامل نص الترجمة العربية إلا بموافقة المترجم.

في أوائل العصر الحديث، كان هناك عدد كبير من القراء في شمال إفريقيا بين الرجال (وأحيانًا النساء) الذين تدربوا في المدارس الابتدائية القرآنية ثم في المساجد والمدارس والمساكن الصوفية. تحت سلطة الفقهاء القانونيين، تلقوا شهادة إجازة/ شهادة إنجاز في نهاية دورة التدريس. في المغرب، كانت النخبة الحاكمة متعلمة ومثقفة: لقد أتقن مولاي أحمد المنصور (حكم ١٥٧٨–١٦٠٣) أقليدس[١]، وقد اشتهرت مكتبته (على وجه المبالغة) بامتلاكها ٣٢ ألف مخطوطة[٢]. على فترات منتظمة، تلقى شحنات من الكتب من إسطنبول، وعندما ذهب سفيره التمجروتي إلى هناك في عام ١٥٨٩/٩٠، اشترى مجموعة كبيرة من الكتب لسيده.[٣] كما أمر المنصور مبعوثيه إلى مكة لشراء أو نسخ كتب له: "يجب أن يتم شكرك على إحضارها إلى شخصنا الحسني، لمعرفة مدى حرصنا على اختيار كتب تعليمية وإضافتها" إلى مجموعتنا[٤].

في الوقت نفسه، حاول المنصور بإصرار استرجاع الكتب العربية التي كانت مملوكة للموريسكيين المشتتين في إسبانيا وكتب إلى الملك فيليب الثاني: "من قراءة مغربية أن السكان الأصليين الأندلسيين كان لهم طقوس وشعائر في كتب منبثقة من قانونكم"[٥]. أخبره المنفيون والهاربون من إسبانيا كيف بعد ثورة ١٥٦٩-١٥٥١ للموريسكوس، نهب الإسبان القرى والمكتبات والمدارس. لسوء الحظ، فإن المخطوطات التي صادروها لم تؤخذ لدراستها أو حفظها: في ٥ مايو ١٥٧٣، سأل ابن زنبل إسبانيا عن قرطبة، وقيل له إن المسجد الكبير قد تحول إلى كنيسة وجميع الكتب التي كانت ملكا للمسلمين في جميع أنحاء الأراضي الإسلامية السابقة قد تم جمعها داخل مبنى بالقرب من الكنيسة، ووضعوها تحت القفل والمفتاح. إذا وضعت أذنك على ثقب المفتاح، يمكنك سماع الصراصير تمضغها[٦].

في سنة ١٦١٢، اضطر خليفة المنصور وابنه مولاي زيدان إلى الفرار من مراكش أثناء النزاع مع شقيقه. واعتزازًا بمجموعة والده، قام بتعبئة ألفي مخطوطة في ثلاثة وثلاثين حزمة وشحنها وأرسلها على متن سفينة من سوس إلى أسفي الآمنة الضامنة. لسوء الحظ، أبحر القبطان الفرنسي للسفينة مع الشحنة واستولى عليها قرصان إسباني أرسل المخطوطات في وقت لاحق إلى فيليب الثالث. كان زيدان يائسا من استعادة المخطوطات، وعندما وصل وفد فرنسي إلى المغرب في سنة ١٦٢٤، أخذ أعضاء البعثة كرهائن: "الجزء السفلي لهذه العملية"، كتب زائر فرنسي بعد أكثر من نصف قرن، "أن الملك كان يرغب في استعادة أغراضه المنزلية، ولكن في المقام الأول مكتبته ... لأنه يوجد فيها العديد من مخطوطات القديس أوغسطين، الذي كانوا يدعونه سيدي بلعباس... هذه المخطوطات التي كان يقدر قيمتها الملك قبل كل شيء من أغراضه المنزلية"[٧].

كان السبب وراء اعتزاز زيدان بتلك الكتب كثيرًا هو أنها شملت مجموعات من شروحات الحديث الواردة والقواعد النحوية وأطروحات حول الطب وعلاج الأمراض وترجمات وتعليقات حول أبقراط وأفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس وشرائع ابن رشد وابن ميمون وترجمات إسحاق بن حنين وأشعار حافظ وأبو تمام ومختارات من الأدبين الفارسي والتركي. بعض الكتب كانت مكتوبة باللغة الأندلسية، في حين أن بعضها الآخر جيء به من مناطق أقرب ما تكون من مايوركا وتبعد حتى مصر. كانت هناك أيضًا نسخة من "القرآن من سورة البقرة إلى سورة مريم وما بعدها، بالخط المسيحي"؛ ونسخة أخرى "مكتوبة باللغة العبرية لا أفهمها"[٨].

كان هناك العديد من الكتب الأخرى، ولكن بعد أكثر من سبعين عامًا، وبصعود سلالة جديدة إلى العرش المغربي حريصة على توطيد السلطة أكثر من التعلم، أصبحت مخطوطة واحدة على وجه الخصوص هدفا لمفاوضات واسعة النطاق بين مولاي إسماعيل (حكم ١٦٧٢-١٧٢٧)، الذي أراد استعادتها، والعقيد بيرسيفال كيرك في طنجة. وكان السبب الذي جعل إسماعيل يريد تلك المخطوطة هو أنها تحتوي على خريطة بها معلومات عن كنز ذهب مدفون.

بحلول السنوات الأخيرة من معقل طنجة، ١٦٨٢-٨٣، كان البريطانيون في شمال إفريقيا لأكثر من عشرين عاما، لكن الوضع كان محفوفا بالمخاطر. لم يثبت المعقل أنه مربح كما اعتقد الملك تشارلز الثاني أنه سيكون، وكان هناك اعتراض من البرلمان بشأن الحاجة المستمرة لإرسال الدعم المالي والعسكري. لم يوقف المغاربة هجماتهم عليه، حيث أوضح مولاي إسماعيل كم كان وجود حصن مسيحي على التراب المسلم إهانة له، وإلى أي حد كان العثمانيون في الجزائر يسخرون منه. كما أعرب عن غضبه من أن التجار الإنجليز كانوا يساعدون ابن أخيه المتمرد في نفس الوقت الذي كانوا يحتجزون فيه ٤٠٠ من المغاربة الأسرى في طنجة "داخل بلدنا"[٩]. داخل المعقل كان على كيرك المناورة بين الضرورات الداخلية والخطر الخارجي، وكان يأمل في بلورة استراتيجية معينة لتحييد الأخطار التي تكتنف الحصن[١٠].

كانت تتحقق آماله في زائر. في رسالة مؤرخة يوم ١٥ يونيو ١٦٨٢ بطنجة، كتب كيرك إلى وزير الخارجية ليولين جينكينز عن السيد مارتن ويسكومب الذي أراد كيرك أن يكتب إلى مولاي إسماعيل عن الكنز المدفون. أخبر ويسكومب الذي أصبح قنصلا في قادس تحت حكم ويليام الثالث كيرك بما يلي: أنه في عام ١٦٣٢، اتصل محمد الشيخ، ابن مولاي زيدان، بالتاجر المسيحي المعروف باسم "تاجر اللؤلؤ"، وطلب منه أن يعثر له في الإسكوريال على كتاب عربي أخذ منه بقدر كبير من المال من قبل الإسبان ... أو على الأقل، الورقة الأولى من الكتاب المذكور مع صورة لملك مغربي معين من جانب، وتحتوي من ناحية أخرى على حروف مختلفة ترسم مفتاحا يدل على اكتشاف الملوك الذين سبقوه لكثير من الكنوز العظيمة[١١]. احتوت تلك الورقة على توجيهات إلى كنز أحد أسلافه، حمل اسمه (محمد الشيخ، توفي سنة ١٥٥٧). ذهب تاجر اللؤلؤ الغامض إلى الاسكوريال ولكن تم رفض دخوله. لقد أبلغت محاكم التفتيش عن منع الوصول إلى المخطوطات الإسلامية. وعلى الرغم من فشله، تمسك التاجر بأمل الحصول على الكتاب والعثور على الاتجاهات الراصدة للكنز، وبعد خمسين سنة، بقي مصرا على ذلك. فبعد أن سمح له بعض الكهنة بالدخول إلى المكتبة، تمكن من الحصول على الخريطة وكان حريصًا على بيعها إلى الحاكم المغربي.

تابع كيرك أن السيد مارتن حكى له هذه القصة، فبعد الوصول إلى طنجة مع رجلين، أحدهما كان رجلا مسنا والآخر 'هو الرجل نفسه الذي كان يسمى في بلاد البرابرة بتاجر اللؤلؤ. لقد أحضروا معهم الورقة المزعومة التي أودعوها في عهدتي،' وقد أوفدت رجلاً محترمًا إلى ملك [المغرب] مع إشعار بذلك. على الرغم من أنه كان متشككًا في أمر هذا الكنز بأكمله، "أحلام الرجال الطامعين" كما سماه، كان كيرك حريصا على استخدامه في توطيد العلاقات مع إسماعيل الذي كان جيشه يحيط بطنجة. كان مسرورًا لإبلاغ جنكينز بأن مولاي إسماعيل عبر عن اهتمامه الكبير بهذا الأمر. أرسل كيرك (نسخة من؟) الورقة إلى إنجلترا مع الأميرال راسل لفحصها والتحقق المحتمل منها. وبعد فترة وجيزة، كما أبلغ في رسالة بتاريخ ١٠ يوليو ١٦٨٢ إلى جينكينز، تلقى مبعوثا من مولاي إسماعيل أراد التحقيق في الأمر. استفسر المبعوث تاجر اللؤلؤ عن الطريقة التي تعلم بها من هذا "السر، والذي [كما زعم ذلك تاجر اللؤلؤ] نقله إليه الملك محمد الشيخ منذ عدة سنوات. كان يجب على التاجر أن يكون قد قدم إجابات مقنعة أثناء وصفه للصعوبات الكبيرة التي واجهته في الحصول على الرسالة. ثم قام التاجر "بإحضار الورقة، وهي عبارة عن ورقة واحدة في مربع صغير، بها صورة لملك مغربي من جانب، وعلى الواجهة الأخرى المكتوبة التي تكشف الكنوز الخفية للعديد من الأمراء". كان المبعوث المغربي، بعد دراسة متأنية، مقتنعا بأنها كانت الورقة الحقيقية التي كان يرغب فيها من قبل مولاي محمد الشيخ، والآن مولي إسماعيل. صرح التاجر بثمن الورقة: قبل خمسين عامًا، عرض عليه مولاي الشيخ مليوني قطعة من ثمانية. والآن، كان على استعداد للموافقة على نفس الشروط. حاول المبعوث المغربي دون جدوى الحصول على الرسالة من أجل إعادتها إلى مكناس، وبعد إخفاقه في إقناع التاجر بالسفر معه مرة أخرى، غادر مع رسائل من كيركي تصف الوضع برمته. كان كل من التاجر وكيرك خائفين من وضع أنفسهم في يد مولاي إسماعيل حتى الآن في مكناس، ولذا توصلوا إلى عذر مفاده أن هناك شريكا متورطا في هذا الأمر لم يسمح للرسالة بمغادرة أراضي طنجة[١٢].

كانت المعاهدة التي استمرت أربع سنوات بين الملك تشارلز ومولاي إسماعيل بشأن طنجة صخرية، وعلى الرغم من أن السفير المغربي محمد بن حدو كان في إنجلترا للتفاوض على شروط سلام جديدة حول البحر والبر، كان كيرك قلقا، وكان يأمل أن جاذبية صفقة الكنز قد تخفف من موقف مولاي إسماعيل من معقل طنجة. في هذا الحساب، كان كيرك محقا: نظرا لاحتمال أن يكون الكنز قد أثار اهتمام إسماعيل الذي كتب إليه (في رسالة غير مؤرخة) أكد له فيها على "عطفه" وتابع: "لقد تلقيت أنباء عن كتابة معينة عن كنز مولاي محمد الشيخ. إذا كان هذا هو المال الذي تم إخفاؤه تحت جذع شجرة ليمون بحضور مسيحي في المغرب، والذي كان يحتوي على ثمانية عشر وعاء من الدولارات، وعثر عليه بعد ذلك من قبل جاروميل حاجي بمساعدة هذا المسيحي الذي ورد ذكره، أنا متأكد من أنه لا يمكن العثور عليه مرة أخرى"[١٣]. لا توجد معلومات حول من كان جاروميل هذا، أو عن المسيحي الذي شهد دفن واكتشاف الكنز (ما لم يكن تاجر اللؤلؤ نفسه). ومع ذلك، وربما على أمل أن تؤدي الخريطة إلى خريطة أخرى للكنز، واصل إسماعيل رسالته من خلال تقديم رشوة لكيرك. 'إذا كان الأمر يتعلق بمال" مولاي زيدان "أو" مولاي بوفارس "[أبو فارس، شقيق زيدان]، أو أي من الملوك السابقين، فإنه لا يزال غير مكتشف. لقد أرسلت خادما موثوقا به لن يكشف عن أي سر يجب أن تطمئن إليه، وإذا أرسلت لي ورقة تلك الاكتشافات، فسوف تكون متأكدا من أنه سيكون لديك نصيبك فيه، وأنني سأفعل أي شيء يمكنني القيام به من أجلك[١٤].

تبعت هذه الرسالة برسالة أخرى أطول منها، أخبر فيها إسماعيل كيرك بأن طنجة كانت آمنة فقط لأنه كان يحبه، وإلا فإن "المغاربة" كانوا سيهاجمونها. وأوضح أن تعاون كيرك فيما يتعلق بالكنز كان حاسما لسلامة المعقل. ومع ذلك، لم يرغب إسماعيل في تضخيم أهمية الكنز، رغم أن هذه الرسالة الثانية كانت في الحقيقة لا تتعلق إلا بالكنز. وأشار إلى أنه كان يشك في المعلومات الموجودة في "الورقة" واعتقد أنها "قضية منتحلة". وقال إنه لم يكن بهذا الغباء، كما قال لكيرك، أن يدفع ثمن "ورقة بها صورة". لكن إذا اعتقد كيرك أن هناك "حقيقة في تلك الورقة"، فعليه (كيرك) إرسالها إليه، وإذا أراد المالك/المالكين لها بعض التأمين الذي يضمن إرجاعها بعد التشاور بشأنها، فإنه سيقدم "أربعة رهائن يقيمون في طنجة. "نحن راضون"، خلص إسماعيل إلى كيرك، "أن ما سعيت إليه في هذا العمل كان خارج حبك لخدمتنا، وخارج حبك الحقيقي لشخصنا". ثم أقسم "بالله الذي في مساعدته نرغب إن كان جيدا ما تقوم به بعد أن نصحتنا، وأن هذا العمل سوف يتم بأيديك، فسنعيد تلك السفينة التي تريدها، وسنفعل المزيد من أجلك، ولن نقلل من تأييدنا لك، وإنما سنجعلك أكبر بين المسيحيين"[١٥].

كان كيرك حريصًا على التفاوض مع إسماعيل بشأن السفينة الإنجليزية التي استولى عليها جنود مغاربة، لكنه لم يكن متأكدا مما يجب فعله حيال الكنز. على الرغم من أن إسماعيل كان مصالحا توفيقيا في رسالته، إلا أن كيرك كان يخشى رفع آمال إسماعيل. بعد كل شيء، يمكن أن يكون الكنز مجرد خدعة للتجار المحتالين - خوف جعله يدرك أنه سيكون حكيما في رده على إسماعيل. واشتكى من وجود "بعض الأشخاص" الذين "أخبروكم [إسماعيل] بنية سيئة عندما دفعوكم للاعتقاد بأنني نظرت إلى الورقة كشيء يحتوي حقا على ما يزعمه أصحابه." من الواضح، كان هناك فصيل مغربي أراد توتير العلاقات بين إسماعيل وكيرك وكان يحاول فضح كيرك ككذاب - أو أراد أن يكون له نصيب في الكنز. اعترف كيرك بأنه لم يستطع تأكيد المعلومات عن الكنز (من الواضح أنه لم يتلق ردا من لندن)، لكنه كتب إلى إسماعيل حول ما أخبره به التجار. مع وجود سفينة إنجليزية بأيد مغربية، أدرك كيرك أنه يحتاج إلى كل المصداقية التي كان عليه أن يستردها من إسماعيل، وتمديد الهدنة مع القوات المغربية المحيطة بطنجة. من الواضح أن ظهوره بمظهر كاذب أو خادع سيقوض موقفه التفاوضي[١٦].

في ٢٤ غشت من سنة ١٦٨٢، أبلغ كيرك وزير الخارجية عن الأوضاع في طنجة، وصعوبات التعامل مع المغاربة، والنزاعات الداخلية بين مسؤولي إسماعيل فيما يتعلق بالخطط ضد طنجة. لقد انتهى بملحق مكتوب مفاده أنه لا يزال يأمل في أن تكون جاذبية الكنز مفيدة: "لقد قمت مرة أخرى بإرسال رجل محترم إلى الملك مولي إسماعيل بخصوص أعمال الكنوز المخفية، بإيعاز جدي من مالكي الورقة، والمراسلون جاؤوا مؤخرًا من صاحب الجلالة عند عودته، وستعرف نتائج ذلك"[١٧]. وكتب أيضًا إلى "القايد" علي، موصله المباشر، يخبره أن رجلاً يدعى حماد القربلي سيبلغه قريبًا عن هذا الكنز، وأنه ينبغي حل الأمور بسرعة قبل أن يكتشف الإسبان ما يجري[١٨]. كان الوقت جوهر الأمر خشية أن يدفع إغراء الكنز الإسبان (في سبتة أو مليلية) إلى الفعل.

الغريب، في الأشهر القليلة المقبلة لم يرد ذكر الكنز في أي من الرسائل الباقية. في أكتوبر من سنة ١٦٨٢، بعد عودة محمد بن حدو السفير المغربي إلى إنجلترا إلى المغرب، كتب مولاي إسماعيل إلى تشارلز الثاني يطلب منه إرسال مبعوثين "صادقين وذكيين" لمناقشة الأوضاع المحفوفة بالمخاطر في طنجة[١٩]. لم يرسل الملك أحدًا، وكان كيرك يخشى أنه إذا هاجم مولاي إسماعيل معقل طنجة، فستكون النتيجة كارثية نظرا لوجود نقص خطير في الإمدادات. في ٢٥ يناير من سنة ١٦٨٣، أبلغ كيرك وزير الخارجية عن الحاجة إلى تجنب الصراع المفتوح وعن محاولاته "لبث أفكار السلام والعيش ضمن حدود حسن الجوار"[٢٠]. بعد شهرين، لم يتغير الوضع. على الرغم من أن كيرك كان متأكدًا من القوة الفائقة للأسطول البريطاني، إلا أنه لم يرغب في استفزاز المغاربة، خشية أن يشنوا هجومًا بريًا على طنجة، ولذا فقد حث الأميرال هربرت على الامتناع عن القيام بنشاط بحري معادي ضد سلا[٢١]. في ٢١ مارس، كتب كيرك مرة أخرى إلى وزير الخارجية ليقدم تقريرًا عند وصول رسالة من مولاي إسماعيل إلى الملك تشارلز، كان يستعد لإرسالها إلى لندن. لقد كانت رسالة قاسية وصريحة[٢٢]، وكان كيرك خائفًا من تأثيرها على العلاقات بين الملكين والعواقب على طنجة. لحسن الحظ، أكد له مبعوثون من إسماعيل الذين حضروا لرؤيته أن "نوايا الإمبراطور كانت تميل إلى مراسلات جيدة"، وأن إسماعيل كان "مستعدًا لتعليق الأعمال العدائية، توقعا ربما لسفارة أخرى، وهدايا من إنجلترا[٢٣].

كان كيرك مرتاحًا، وفي وصف مشاعره، يعطي الانطباع بأنه كان يحاول إقناع نفسه، وكذلك جنكينز، بالتطمينات التي تلقاها. لنحو ثمانية أشهر، لم يرد ذكر شيء في رسائل طنجة

حول الكنز. لكن بعد ذلك، في مارس من سنة ١٦٨٣، علم كيرك بالرسالة الخطيرة من إسماعيل إلى الملك تشارلز. كان المغربي غاضبًا من تشارلز لأن الأخير قد اتهمه بخرق معاهدة بحرية بينهما، والتي لم يتم تأكيدها مطلقًا مادام "أن البحر لم يتم التعامل معه حتى الآن ... لا يوجد لدينا شيء نفقده في البحر، وعلى الرغم من استمرار سفنك التي لا تمضي وقتًا طويلاً أبدا أمام هذه الأماكن، فأنت لا يمكنك أن تؤذينا". ثم طلب إسماعيل من تشارلز "التوبة عما قمت به في هذه القضية"[٢٤]. في اليوم نفسه الذي كتب فيه إسماعيل إلى تشارلز، كتب أيضا إلى كيرك لتذكير البريطانيين بأن السبب الوحيد الذي جعل قواته لم تهاجم طنجة هو أنه، هو إسماعيل، أحب كيرك كثيرا، وقد أعجب به عندما، جنبا إلى جنب مع ستين مسيحيًا، قدم نفسه في بلاط مكناس، لأن "تعقلك ومجاملتك وتقديريك منحت [كذا] دخولاً إلى قلبي". لقد نمت المحبة اتجاهه ليحبه كثيرا لدرجة أنه يرغب حقا في توجيهه نحو الإسلام، وهو يرى أنه لا يمكن أن يقدم له أية هدية أعلى من ذلك. وهكذا إذا رغب كيرك في الحفاظ على الهدنة التي دامت أربع سنوات والتي وافقوا عليها، فعليه أن يواصل إرساله كما طالب بذلك "مائة أو ألف قنطار من مساحيق البارود الخاصة بالأسلحة أو القماش"[٢٥]. وجد كيرك الرسالة مقلقة للغاية، حيث انتهى بملاحظة تهديدية: "لا تهمل إرسال الجواب ودون إبطاء، فإذا كنت تملك السلطة من سيدك، فأنت من سيجيبني في هذه الأمور". لقد أدرك أن أمله الوحيد في تهدئة الحاكم المغربي كان من خلال إثارة مسألة الكنز مرة أخرى - وهو ما فعله في رسالة مؤرخة في ماي من سنة ١٦٨٣.

يجب أن يكون كيرك قد أدرك أن هذه ستكون آخر مرة يمكنه فيها تعليق مفاوضات الكنز أمام إسماعيل، وبالتالي فهو بحاجة إلى التأكد من ذلك. مادام الدليل الثابت الوحيد لديه عن الموقع السري (لم يتم ذكر للسيد مارتن أو لتاجر اللؤلؤ في مراسلاته في هذه المرحلة) "لتلك الورقة"، قرر إعطاء الكنز محاولة أخيرة - للتأكيد تمامًا من ذلك. لقد أرسل "الورقة" نفسها (هل أرسل نسخة فقط في وقت سابق؟) إلى إنجلترا للحصول على ترجمة خبير. لعدم وجود أي شخص في المعقل لديه معرفة كافية باللغة العربية، فقد طلب من الدكتور توماس هايد من جامعة أكسفورد إجراء الترجمة وإعادتها إليه "بحلول أول فرصة آمنة"[٢٦].

كان هايد معروفا بوضع معرفته باللغات الشرقية على حد سواء رهن إشارة الاستخدام التجاري والدبلوماسي. في سنة ١٦٧٥، كتب إلى وزير الخارجية جوزيف ويليامسون، يقترح التكليف بإجراء ترجمات من اللغة الفارسية والعربية لمواد يمكن أن تقدم خدمات لأبناء بلده: ترجمة علم الجغرافيا لدى أبو الفيدا من خلال اللغة العربية، أمير حماة في سوريا، وهو أدق الجغرافيين الشرقيين حيث سيتم حذف وتعديل أخطاء خرائطنا للأجزاء الشرقية[٢٧]. مدى صلابة معرفته بالعربية لم تكن واضحة لأنه في سياق شمال إفريقيا اتُهم بتقديم ترجمة غير دقيقة لرسالة من تشارلز الثاني إلى مولاي إسماعيل، إذ لم تكن لديه، كما كانت الشكوى، "المعرفة الحقيقية بقوة وأهمية التعابير"[٢٨]. لكن كيرك كان يثق فيه، وهكذا كان هايد مضطرًا للترجمة، كما كان في المناسبات السابقة.

في رسالة مؤرخة يوم ٢٩ ماي من سنة ١٦٨٣، أوضح هايد أن الكتابة في ورقة كانت مبهمة تماما، لكنه قام بترجمتها بأفضل طريقة ممكنة، دون ترك أي "لحظة مهمة لم يتم الكشف عنها". ثم أضاف: "ما قد يكون في قصة مولاي حميد حيث يخفي كنوزه التي لا يمكنني أن أخبر عنها"[٢٩]. لم يكن السبب هو عدم فهمه للنص، بل حقيقة أن النص لم يصف الكنز وكان مجرد بداية "كتاب يحتوي على حياة أحد الملوك، كما هو مذكور في التوضيح تحت صورته، وهي صورته هذه، الله يحفظه" (جريئة في الأصل). وأضاف أن الأمر المذهل في الكتابة هو أنها كانت مكتوبة باللغة العربية من اليسار إلى اليمين. ثم خلص هايد إلى أن القصة الكاملة عن الكنز كانت خدعة، "قصة فارغة" دون أية حقيقة بخصوص "إخفاء أي كنز"، "وأقسم على هذا بيميني"[٣٠].

الترجمة التي قدمها هايد نجت، وهي مؤرخة في ٣٠ ماي من سنة ١٦٨٣: "رواية الورقة المكتوبة باللغة العربية على الواجهة الخلفية لصورة المغربي حيث حذفت بعض الكلمات بصورة تعتريها نقائص إذ لا يمكن قراءتها":

"العدالة، والمداخيل... التي تغير العواصف السوداء ... التي يقدمها الأباطرة، عندما يقفون أمام تاجه، فيسقطون ويعبدون مجسم لحيته فوق قبره: مع ذروة الشهرة التي طارت عبر--- جميع البلدان، وشغلت آذان العالم وأتت من كل طرق الكون حيث تتناثر/ وتبذر في كل أرض العرب. و ... وفيه يفرح كل الرجال الذين تم العثور عليهم".

ثم تخلص إلى:

"وصف آخر له (يحفظه الله) مأخوذ من الجزء الأكبر من حياة أبيه الإمام الذي يصلح الله أمره.

لقد كان ملمحه مذهلا بحسن لامع - كأنه أسد في أدائه، وراشد في جاذبيته ووداعته في جميع الآداب الجادة. لقد كان ذو أكتاف عريضة حيث الحضور الوسيم، وهو مزين بزخرفة لؤلئية رائعة. كان شجاعا وباسلا وقويا وكان مما يميزه بشكل فريد عيون كبيرة وحواجب كثيفة الشعر. لقد كان طويل القامة - ولكن معتدل القوام: واسع النطاق وممتلئ الجلد وذا شارب متلألئ بالألوان"[٣١].

ومع ذلك، لم ترافق الرسالة أية خريطة (في الأرشيف الوطني، على الأقل).

في غياب المستند الأصلي، لا يمكن التحقق مما إذا كانت الوثيقة، كما وصفها هايد، مجرد فاتحة لكتاب أو رسالة مشفرة تؤدي إلى الكنز. كيف تمت كتابة اللغة العربية من اليسار إلى اليمين لا يزال غير واضح (هل كان تسلسل الكلمات الذي تم عكسه أو الأحرف في الكلمات هي التي تم عكسها. من الذي سيكتب بهذه الطريقة ولماذا). حتى الآن، أصبح كيرك مقتنعًا بأنه لا يوجد كنز، وبالتالي فقد تخلى عن هذا الخط من المفاوضات. لا توجد إشارات أخرى إلى الكنز في أرشيف طنجة، سواء من قبله أو من قبل إسماعيل.

لكن مسألة مخطوطات مولاي أحمد المنصور ظلت موضوع مفاوضات مكثفة، على الرغم من الإخفاق في ورقة الكنز. في وقت سابق من سنة ١٦٨١، أبلغ السفير المغربي، الحاج تيم، إسماعيل عن العدد الكبير من الكتب العربية التي شاهدها في فرنسا خلال زيارته. اعتقادًا منه بأن بعض كتب مولاي زيدان ربما تكون قد وجدت طريقها إلى فرنسا، أخبر الحاكم المغربي كاهن الثالوث الإسباني أنه حمل الملك الفرنسي مسؤولية فقدان مكتبة مولاي زيدان، مضيفًا أن المقتنيات العربية للسوربون كانت جزءًا من تلك المجموعة التي أراد استرجاعها[٣٢]. لم يرد الملك الفرنسي، وهكذا أرسل إسماعيل في سنة ١٦٩٠ سفيره، محمد بن عبد الوهاب الغساني، إلى إسبانيا للتفاوض على إطلاق سراح الأسرى المسلمين – والكتب[٣٣]. فالرسالة التي أخذها معه إلى الملك الإسباني تضمنت مطلب مولاي إسماعيل الصريح:

"لكل خمسين مسيحيًا من بين المئات، أعطنا ٥٠٠٠ كتاب، ١٠٠ كتاب عن كل مسيحي. يجب أن تكون الكتب نصوصًا إسلامية أصيلة، وبعضها محفوظ في مكتباتك في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها من المدن والقرى المجاورة. دع خادمنا يختارهم وخاصة نسخ القرآن وغيرها من الأصناف... إذا كانت الكتب التي نريدها غير متوفرة، فامنحنا الأسرى المسلمين، بما في ذلك عبيد المطبخ. سوف نقبل الرجال والنساء والأولاد والرجال المسنين"[٣٤].

هذه الرغبة في استرداد "الكتب المسلمة التي تركت في المساجد المهجورة" كانت تتذكر منذ عقود -كما سجل محمد بن الطيب القادري في مذكراته بعد عقود لاحقًا[٣٥]. بعد كل شيء، كانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ الحديث المبكر التي يرغب فيها حاكم قوي في إعادة الأسرى الأوروبيين مقابل كتابات إسلامية مسروقة.. ولكن لم يتم إرجاع أي كتب، حيث أخبر الملك بشكل خاص من قِبل مستشاريه أن إعادة الكتب كانت غير لائقة وأن الكرسي الرسولي سيكون مستاء للغاية. بدوره، أبلغ الغساني أن الكتب قد تم حرقها (عندما زار الإسكوريال، تم إخفاء الكتب حتى لا يراها)[٣٦]، فعاد بالأسرى، ولم يعد بالكتب.

على الرغم من أن خريطة الكنز لم يرد ذكرها في المراسلات، وصلت الرغبة في استرجاع كتب مولاي زيدان إلى الجزائر، وفي ١٤ يناير من سنة ١٦٩٢، أبلغ القنصل الفرنسي في الجزائر عن عودة ١٢٠ أسيرا من إسبانيا تم تحريرهم بتدخل مولاي إسماعيل، إلى جانب "أربعة آلاف عمل باللغة العربية من المكتبة الملكية في مدريد"[٣٧]. لا يوجد أي دليل، في أي مكان، على أن هذا العدد من الكتب قد عاد منذ سنة ١٦٩٩، كتب مولاي إسماعيل إلى الملك لويس الرابع عشر يطلب منه السلع الاستهلاكية ومرة أخرى "الكتب العربية التي أسمع أنها تحت نفوذك وفي ممالكك"[٣٨]. بعد ثلاثة أرباع قرن من الزمان، كان حاكم المغرب محمد بن عبد الله لا يزال يفكر في كتب مكتبة مولاي زيدان. ففي سنة ١٧٦٥، أرسل سفيره أحمد بن المهدي الغزال إلى إسبانيا لفدية الأسرى المسلمين وإعادة الكتب. في مفاوضاته، أكد السفير أنه يريد الأسرى والكتب، وليس دفع ثمنها: لأنه "لدينا الكثير من الذهب والفضة والماس". كتب السفير أن هناك ٢٠٤ أسرى يعملون على بناء الطريق من مدريد إلى الإسكوريال؛ لقد كانوا ٣٠٠ قبل هروب بعضهم أو موتهم، "لقد أنعم الله عليهم بالاستشهاد". كان معظم الأسرى جزائريين، لكن تعليماته كانت العمل من أجل تحرير جميع الأسرى بغض النظر عن الجنسية، لأن "الكل واحد في الإسلام". وبعد أيام، عندما وصل السفير إلى قرطاجنة، وجد بعض الأسرى الذين أطلق سراحهم. عندما اصطفوا على متن السفينة للإبحار إلى سلا، كان كل واحد منهم يحمل كتابًا فوق رأسه[٣٩].

ربما وجدت حفنة من مخطوطات زيدان طريقها إلى المغرب. وربما كانت ورقة الكنز مخبأة داخلها.

ملاحظة إضافية

في نهاية القرن الثامن عشر، أعد أمين مكتبة إسكوريال الشرقية للمخطوطات، ميغيل كاسيري، ببليوغرافيا مشروحة للكتب العربية التي نجت من حريق ١٦٧٣ من مجموعة المنصور: مكتبة إسكوريال العربية الإسبانية المشكلة من الكتب والمخطوطات. يتضمن جزء كبير من المكتبة العربية حول المجتمع الإسباني- إسكوريال- كتب المؤلفين العرب حيث مراجعات وتفسيرات ميخائيل كاسيري. (مدريد، أنطونيو بيريز دي سوتو، ١٧٦٠-١٧٧٠). ما تزال بعض المخطوطات في الإسكوريال حتى اليوم، في حين تم نقل الغالبية إلى المكتبة الوطنية في مدريد.

نبيل مطر - جامعة مينيسوتا

عنوان المراسلة

البروفيسور نبيل مطر، قسم اللغة الإنجليزية، جامعة مينيسوتا، ٢٠٧ شارع شورش س.إ، مينيابوليس، مينيسوتا ٥٥٤٥٥، الولايات المتحدة الأمريكية، البريد الإلكتروني: mataro10@umn.edu

الاحالات المرجعية:

(1) Ahmad ibn Muhammad al-Maqqari, Rawdat al-ās al-ātirat al-anfās fī dhikr man laqiyathu min a lām al-hadratayn Murrākush wa-Fās (Rabat, al-Matba'ah al-Malakīyah, 1964), p. 35.

(2) Ahmad ibn Qasim al-Hajari, Kitāb Nāsir al-dīn alā l-qawm al-kāfirīn, eds Van Koningsveld, Qāsim al-Sāmarrā'ī, et al (Madrid, al-Majlis al- A'lā-Abhāth al-Islmīyah, al- Wikālah al-Isbānīyah lil-Ta'āwun al-Dawlī, 1997), p. 103.

(3) Al-Mansur was a bibliophile: see Rasā'il Sa'dīyah, ed. 'Abd Allah Gannūn (Titwān, Ma'had Mulai al-Hasan, 1954), pp. 81, 104: 'books for our massive libraries of knowledge', and p. 182 for books from Egypt.

(4) Ibid., p. 81. The Sa'dian dynasty claimed descent from the grandson of the Prophe Muhammad, Hasan.

(5) Quoted in Darío Cabanelas Rodríquez, 'Cartas Ahmad al-Mansur a Felipe II', Al-Andalus, 23 (1958), 19–47 (at p. 38).

(6) Tohfat el-Molouk in E. Fagnan, Extraits inédits relatifs au Maghrib (géographie et histoire) tr. de l'arabe et annotés (Algiers, J. Carbonel,1924), p. 136.

(7) A Letter; in answer to divers Curious Questions Concerning the Religion, Manners, and Customs, of the Countrys of Muley Arxid King of Tafiletta (London, 1671), pp. 58–9.

(8) Nemesio Morata, 'Los Fondos Àrabes Primitivos de el Escorial', Al-Andalus, 2 (1934), 87–181. So many manuscripts had been stolen or destroyed that by the late 1660s, when the English chaplain Lancelot Addison travelled in Morocco, he found no books at all. Instead, he found that the people 'wondered to see any Book of Age or Volume in their own Language', Addison, West Barbary, or, A short narrative of the revolutions of the Kingdoms of Fez and Morocco: with an account of the present customs, sacred, civil, and domestick (Oxford, 1671), 'To the Reader'.

(9) CO 279/30/369r–v (25 March 1682).

(10) For a discussion of overall relations between Kirke and Ismail, see my Britain and Barbary 1589–1689 (Gainesville, University Press of Florida, 2005), chapter 5.

(11) CO 279/29/277v (15 June 1682).

(12) CO 279/29/325r–v.

(13) CO 279/30/342.
(14) Ibid.
(15) CO 279/30/351r.
(16) CO 279/30/132v.
(17) CO 279/30/ 56v.
(18) CO 279/30/336 (1682).
(19) CO 279/30/240r (27 October 1682).
(20) CO 279/31/58v–59v (25 January 1683).
(21) CO 279/31/166r (19 March 1683).
(22) CO 279/30/340r–341v (3 March 1683).
(23) CO 279/31/171v, 172r (21 March 1683).
(24) CO 279/30/ 340v, 341r (21 March 1683).
(25) CO 279/31/169r–170v. The English translation of the letter (the Arabic did not survive) is dated '4 Rabi Nebahy 1682/83'; the Arabic letter of Ismail to Charles, which has survived, is dated 4 Rabī al-Nabawi, 1094.
(26) CO 279/31/173r (21 March 1683).
(27) CSPD, Charles II, March 1st, 1675, to February 29th, 1676 (14 September 1675), p. 295.
(28) CO 279/31/173r (21 March 1683).
(29) CO 279/31/325r.
(30) Ibid.
(31) CO 279/31/381 r–v.
(32) Quoted in Younès Nekrouf, Une amitié orageuse, Moulay Ismail et Louis XIV (Paris, A. Michel, 1987), p. 89.
(33) See the translation of his account of this journey in Nabil Matar, In the Lands of the Christians (New York, Routledge, 2003).
(34) Al-Wathā'iq: majmū'āt wathā'iqīyah dawrīyah (al-Rabāṭ, Mudīrīyat al-Wathā'iq al-Malakīyah, 1976), First Collection, p. 418. It is strange that the British ambassador in Spain, who was present at the arrival of al-Ghassani in Madrid, was not aware of the book factor: 'His business is only to treat about the redemption of the prisoners taken at Larache. It is adjusted he is to have ten Moors a-piece for a hundred officers, and the common men to be exchanged man for man', Alexander Stanhope, Spain under Charles the Second, ed. Lord Mahon (London, 1846), p. 11.
(35) Muhammad ibn Tayyib al-Qadiri, Nashr al-mathānī li-ahl al-qarn al-hādī' ashar wa-al-thānī, ed. Muhammad Hajjī and Ahmad al-Tawfīq (Rabat, Maktabat al-Ṭālib, 1977–1986), III, 173.
(36) Tomás García Figueras and Carlos Rodríguez Joulia Saint-Cyr, Larache; datos para su historia en el siglo XVII (Madrid, Instituto de Estudios Africanos, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1973), p. 323.
(37) Mohammed Touili, Correspondance des consuls de France à Alger 1642–1792: inventaire analytique des articles A.E. BI 115 à 145 (Paris, Centre historique des archives nationales, 2001), p. 56.
(38) Henry de Castries, Pierre de Cenival and Philippe de Cossé Brissac, Les Sources inédites de l'histoire du Maroc: Archives et Bibliothèques de France – Dynastie Filalienne (Paris, Ernest Leroux, 1922–1960), 6 vols, V, 381 (30 July 1699).
(39) Al-Ghazzal, Natījat al-Ijtihād fī al-muhādanah wa-al-jihād, ed. Isma'īl al-'Arabī (Beirut, Dar al-Gharb al-Islami, 1980), pp. 143, 153, 177.